ثورة التصحيح والتعامل مع الحقائق..

د. سيد نوفل

أكتوبر

ثورة التصحيح ثورة رائدة خلاقة .. أخرجت مصر العربية من ظلمات الهزيمة والاحتلال إلى نور النصر والتحرير. وفتحت الأبواب واسعة لبناء الديموقراطية السليمة والتنمية الشاملة .. وألقت على كل مواطن مسئولية النهوض بالواجب فى هذه المرحلة التاريخية : مرحلة التحول الوطنى الكبير..

▲ الياس سركيس .. زار لبنان هوانا على هوان

◀ الشيخ جابر الأحمد الصباح للقاء مع «أبو عمار».

وعلى مشارف الذكرى التاسعة لثورة التصحيح ، يجمل بنا أن نستذكر أبعاد هذا التحول .. وأن نقابل بين ما كنا عليه وما أصبحنا فيه .. وأن نعمق الأسباب وندعم الوسائل .. وأن يكون ذلك حافزا لمضاعفة العمل وللمزيد من الثقة والأمل ... وفى هذا نشير إلى ما يأتى :

١ – كانت عوامل اليأس والشك تستبد بالعقول والقلوب .. فحلت محلها عوامل الأمل والثقة ..

٢ – وكانت الأرض المصرية والإرادة المصرية مكبلتين بالاحتلال الأجنبى والطغيان الداخلى .. فتحررت الأرض والإرادة معا . وأصبحنا نبنى كل يوم جديدا ، ونفتح آفاقا للإعمار والاستثمار ..

٣ – وكنا فى النزاع العربى الإسرائيلى منكوسين .. نتأخر رغم قوانا الوفيرة وأعدادنا الكثيرة .. فبدأنا نتقدم ونستثمر قوانا الذاتية : الطبيعية والبشرية ..

٤ – وكانت الكلمة العربية صرخة فى واد .. تلتزن فى أذهان العالم بالشطط فى القول والعجز فى العمل .. فعلت كلمتنا ، وفرضت نفسها فى كل مكان .. واعتزت قضايانا القومية ..

٥ – وكانت القوى العربية الطبيعية مهدورة لا سلطان لها عليها .. يستغلها الغير ولا يشكرها .. فأصبحت لنا السيادة عليها .. وأصبح العالم يقدرها حق قدرها .. وارتفعت عوائدها وتمت ثمراتها ...

٦ – وكانت إسرائيل ، والعالم معها ، تعيب علينا السلبية والرفض .. فتحررت مصر والجماهير العربية منها .. وأصبحا رمزا لسياسة المتشددين الإسرائيليين المتهاوية .. وآن للرافضين العرب أن يتحرروا منها أو يسقطوا بها ..

□ □ □

■ ويطول الحديث عن الانجازات المصرية فى هذه السنوات العشر المباركات .. وإذا كان التاريخ لا يعنى بالتفاصيل وخاصة بعد تقادم الزمان .. فإن سجله لن يخلو من الحقائق الكبرى لهذه الحقبة الخالدة .. وهى :

١ – حققت مصر المستحيل بعبور القناة وتحطيم حصون بارليف وتحرير سيناء ..

٢ – فتحت ثمرها المائى العالمى بعد أن قدر العالم أنه لن يعود سيرته الأولى ..

٣ – صححت مسار النزاع العربى الاسرائيلى بمبادرة السادات التاريخية عام ١٩٧٧ ..

٤ – أرست قواعد السلام العادل الشامل فى الشرق الأوسط باتفاقات السلام عام ١٩٧٩ .. وفتحت أبواب الحرية والتنمية للمنطقة كلها .. ولن يذكر التاريخ مأساة الرفض العربية فهى تجافى حركة التاريخ التى لا دافع لها .. وقد آذنت بالزوال .. بعد أن دمرت نفسها من داخلها ومن خارجها .. وأصبح العمل للخلاص القريب منها ، ومن مخاطرها المتفاقمة ، فرض عين على كل عربى يعرف واجبه نحو نفسه ووطنه وأمته ...

ولقد كان التعامل مع الحقائق هو سر النجاح الذى حققته مصر طوال السبعينات . وكان التغاضى عن الحقائق الوطنية والقومية والدولية ، وحقائق إسرائيل ذاتها هو سر ما ألم بمصر وشقيقاتها من هزائم متصاعدة طوال ربع قرن من الزمان ..

ولا ريب أن التعامل مع الحقائق ، وإن كانت رهيبة ، هو النهج المستقيم للقادة فى النهوض بمسئولياتهم ، وللشعوب فى تضافرها لتجاوز الهزيمة ، ولاستعادة تقدمها الوطنى ومكانتها الدولية ..

شميت وأوهيرا .. ألمانيا الغربية واليابان اللتان اصبحتا قوتين عظيمتين فما وزنهما فى العالم .

ومن الذين أحسنوا التعامل مع الحقائق ، بعد الهزيمة الساحقة مرة بعد أخرى ، اليابانيون والألمان الغربيون .. وأوهيرا يتحدث اليوم إلى كارتر حديث الند للند والقوى للقوى .. ويعترف كارتر بأن لكلمة اليابان وزنها وشأنها فى الشرق الأقصى وفى العالم الصناعى الغربى ، وفى العالم كله ..

وما بلغته ألمانيا الغربية من قوة وتقدم ، بعد خمسة وثلاثين عاما من الهزيمة الماحقة ، يفوق ما حققته اليابان ، ويتجاوز كل تصور .. ويرى تحليل سياسى بريطانى فى هذه الأيام أن هيلموت شميث ، مستشار ألمانيا الغربية ، يمكن أن يكون رجل الثمانينات ، وأن يكون أعظم الساسة نفوذا فى العالم غير الشيوعى .. ويؤكد أن لديه من الفرص المتاحة ما يفتقده أى زعيم غربى آخر ... فالرئيس كارتر قد أفقدته سياسته المترددة وأعجزه ارتباكه فى غيره .. ورئيسة الحكومة مارجريت تاتشر بعيدة النظر حقا ، لكنها تقود دولة ضعيفة اقتصاديا ... والرئيس جيسكار ديستان مقيد بشبه العزلة الذى فرضته فرنسا على نفسها .. كما أن رئيس الحكومة أوهيرا مقيد بشبه العزلة المفروض تاريخيا على اليابان ...

ومع ذلك يعارض التحليل البريطانى بيج شميت فى الصراع الدولى الراهن .. ويفتقد حجيجه فى الحرص الشديد على الوفاق الدولى ، وخشية عودة الستار الحديدى الرومى .. وهى عودة لا مجال لتصورها .. ويذكّر التحليل شميت بقولة له سبقت منذ عشر سنوات ، ومن قبل توليه الزعامة الألمانية بأربع سنين .. فقد قال شميت حينذاك :

■ يستطيع التراجى من لا يستطيع رؤية الحقائق الرهيبة ، أو من يراها ويتغاضى عنها عمدا .. فالذين يستهويهم إغراء التراجى هم الذين يمكنهم التغاضى عن الحقائق ..»

لكن شميت يقدم فى الواقع الحقائق الوطنية على كل ما عداها .. وهى سعى ألمانيا الغربية لإدامة الوفاق الدولى أملا فى استعادة الوحدة الألمانية ، وإبقاء للحرب قبل امتكال الدفاع الوطنى ، وحفاظا على التفوق الاقتصادى وما يتصل به من التبادل التجارى مع الكتلة الشرقية ..

□ □ □

ومهما يكن من أمر ، فإن التغاضى عن الحقائق ، وعدم المواجهة للتطورات الأساسية ، ولا المعرفة بالإمكانيات الذاتية وحسن استخدامها – كل ذلك هو الذى أدى إلى ما ألم بمصر خاصة ، وبالعالم العربى عامة ، قبل السبعينات .. لقد كنا نستريح إلى الرفض والسلبية والهرب من المواجهة للحقيقة والواقع ...

ودار الزمن دورته فى السبعينات .. وأصبحت سياسة مصر العربية رمزا للمبادرة والإيجابية .. تلقى التأييد العالمى الحر .. وأصبحت سياسة المعارضين فى إسرائيل وفى العالم العربى رمزا للرفض والسلبية .. تلقى المقاومة الشاملة من الداخل والخارج .. ولا مناص من استكمالها لحركة التاريخ : حركة السلام العادل الشامل ...

وتتمثل قمة الهرب من الحقائق فى حركة الاستيطان الإسرائيلية .. فهى تؤجج نار العداوة والبغضاء بين العرب واليهود فى مطلع عهد السلام ... ثم تتخذ إجراءات قمعية لمحاق تمام انتفاضة مشروعة فى هذا العهد ...

ومن أبشع صور الهاربين حركة الرفض العربية التى قادها الرافضان الأولان الأسد والقذافى .. وانتهت بهما إلى شن الحرب على الشعبين السورى والليبى بعد الشعب الفلسطينى .. وانتهى الأمر إلى أن تصبح سورية كلها ميدانا لحرب الإبادة المعلنة على الشعب السورى العربى بدعم خارجى قريب وبعيد .. وانتهى الأمر بالليبيين إلى الفرار إلى بريطانيا وإيطاليا وأمريكا وغيرها لجاة بحياتهم .. فبلاحقهم القذافى بتدبير تصفيتهم جسديا .. يعلنه بلا خجل ولا تحفظ ... ويثور الأوروبيون والأمريكيون لحياة العرب الليبين ويطردون العملاء الإرهابيين ممثل القذافى ... ولا يثير العرب الداعمون ولا الصامتون المستغلون ..!!

□ □ □

ومن صور الهرب العجيبة موقف حكومات الخليج وشبه الجزيرة العربية .. فقد تصوروا أن باستطاعتهم النجاة من الإرهاب بالبذل والعطاء ، فأغدقوا على من يعملون للإطاحة بهم والتمكين للمطامع الأجنبية فى بلادهم . وهكذا مولوا مصادر الأخطار المهددة لهم ولوطنهم .

■ وأشد صور الهرب تخلفا هى صورة الزعماء الفلسطينيين ..

فقد تنكبوا سبيل السلام المستقيم ، وسلكوا سبيل الصراع الدولى الوعر .. وأهدروا خطوات قضيتهم التى مشتها بفضل سياسة الحرب والسلام المصرية .. وأخذوا يحاولون فى مجلس الأمن ما قاسيناه فشله ثلاثين عاما .. وخدعوا بالأوهام فصدمتهم المواقف الدولية الأخيرة ..

□ □ □

ولقد عجبت حين استمعت لتصريح أخير من السيد ياسر عرفات بعد لقائه بأمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح .. فقد أكد الأخ أبو عمار التأييد للسياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط غير حافل بأفغانستان ولا بالموقف العربى الإسلامى .. ثم قال إن المنظمة ستشعل النار فى بترول الشرق الأوسط إذا حاولت الولايات المتحدة الأمريكية التدخل فى المنطقة .. وقد يقبل هذا القول غير الحكيم من الزعيم الفلسطينى إذا كان التهديد المسرف من أجل قضية فلسطين .. أما أن يكون مظهرا للتورط فى الصراع الدولى ، فذلك هو النأى حقا ...

واجتمع أبو عمار مع قطب زاده وزير خارجية إيران فى بيروت .. وقال أبو عمار إن الثورة الإيرانية والثورة الفلسطينية ثورة واحدة متكاملة .. ولا أدرى فهم التكامل ؟ ! لقد خرج الرئيس الإيرانى الحسن بنى صدر أخيرا من صمته .. وشكا مر الشكوى من حكومة الخمينى التى أصبحت حكومات متصارعة على السلطان .. ومن الدولة التى أصبحت أقاليم متقاتلة وبحلا متحاربة ، يسقط فى معاركها كل يوم عشرات القتلى ومئات الجرحى ، عدا من يسقطون فى أحكام الأعدام الثورية المتصلة ..

ونبى بنى صدر ، ونعى العالم معه ، الوحدة الإيرانية التى رحلت مع الشاه منذ عام وربع عام .. ! فهل هو التكامل فى الإرهاب والتمزق الوطنى والتسخط الدولى ؟ ! .

■ وأخطر ما فى الأمر التورط الفلسطينى مع إيران ضد العراق المتحاربين .. وبهذا أصبحت المنظمة الفلسطينية تخضع للإرهاب المتناقضين من السوريين والليبين والعراقيين .. وبهذا يشكو صلاح خلف من التدبير العراق لاغتياله فى بلجراد ... ولا يجد الفلسطينيون سندا ثابتا سوى مصر العربية ، وإن أبطل المبطلون وأثم الأفاكون ...

ولبنان .. لقد عولت قضيتها عن مصر .. فتصاعدت كوارثها ولم ينعمها التوطين ولا التعريب ولا التدويل على طول خمس سنين ! ! وكان الرئيس اللبنانى : إلياس سركيس ، مدير مصرف لبنان ، قبل أن يتولى الرياسة على أسنة الرماح الأسدية .. وكان يتحمس للتعاون المصرى اللبنانى مرددا دائما ارتباط الاستقرار والتقدم فى لبنان بهذا التعاون ..

و أنت تلك سياسة لبنانية ثابتة .. استقرت منذ عهد بشارة الخورى ورياض الصلح ، وحتى ما قبل إلياس سركيس وسليم الحص .. وكان اللبنانيون يطلقون على سركيس ، تعبيرا عن انتمائه المصرى : «مدير مصر فى لبنان» .. وظن سركيس أنه يستطيع تجاوز الحقائق المستقرة ، فزاد لبنان وحكومته ورئيسه هوانا على هوان ..!!

وماذا كسب المغرب وتونس والأردن من الأموال العربية المتدفقة ؟ ! وهل استطاعوا أن يتجاوزا بها الحقائق الثابتة ؟ ! أو أنها زادتهم ضعفا على ضعف ، وتصاعدت معها المخاطر والتكوارث ؟ !

□ □ □

وبعد ، فإن التعامل مع الحقائق هو السبيل لما حققته مصر ، بقيادة السادات ، فى السبعينات .. وهو السبيل لما يرجى للفلسطينيين خاصة وللعرب عامة فى مطلع الثمانينات .. وعلى الأشقاء العرب جميعا أن يتعاملوا مع الحقائق الجغرافية السياسية فى العالم العربى .. وهى حقائق لا تميل ذات اليمين ولا ذات اليسار ، رغبة فى المال أو خشية للأرهاب ..!!

ومهما يكن من أمر فإن مصر العربية تستند فى سياستها إلى الحقائق الصلبة ، وإلى الانجازات التاريخية فى ميدانى الحرب والسلام ... ولابد – بمشيئة الله وإيمان أمتنا – أن يستعيد الشعب الفلسطينى حقوقه الوطنية ويؤسس دولته المستقلة ، وأن تنجو منطقتنا من مخاطر التهديد الأجنبى يسودها السلام العادل ...

□ □ □

■ وهنا يأتى دور مصر الجاد فى مطلع العهد الجديد الذى يدأناه منذ شهرين . وبقدر البناء الذاتى تتحقق الأمانى الوطنية والقومية ... وهنا تتطلع الأنظار إلى الأيام القلائل المقبلات ..

فتحية لمصر يوم انتصرت فى الحرب وفى بناء السلام ...

وتحية لها يوم تتحقق الأمانى الفلسطينية ويسود السلام العادل ...

وتحية لها يوم تصحح المسار الوطنى الداخلى ...

وتحية لها يوم تلتقى والأشقاء العرب فى خطة رشيدة وعلى كلمة سواء .. ■